المرأة في الرواية الجزائرية المعاصرة، رواية "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق أنموذجا

Woman in the Modern Algerian novel " The Story of Ta El Khadjal "by Fadhila El Farouk

ط/د: عبدالعالي أحمدالصالح [1,*]، أ د: يوسف العايب [2]

1جامعة الوادي (الجزائر) **abdelaliahmedsalah@gmail.com**

2جامعة الوادي (الجزائر) **youcef-laib@univ-eloued.dz**

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

تاريخ الإيداع: 2021/09/01 **تاريخ المراجعة**: 2022/07/12 **تاريخ النشر**: 2022/11/30

ملخص:

تعتبر الرواية نتاجا لتفكير المجتمعات، ولها القدرة الكافية على وصف وتحليل قضايا المجتمع المتنوعة، ومن بين أهم القضايا الأساسية التي عالجتها الرواية "قضية المرأة"،التي استقطبت اهتمام الأدباء والمفكرين، فراحوا يرسمون لها صورا كلّ حسب رأيه وخلفيته الفكرية، مما جعل حضورها يفرض نفسه على متلقي هذا الأدب سواء أكان قارئا متذوقا أم ناقدا دارسا.

وبما أن المرأة الجزائرية عايشت ظروفا وتخبطت في مشاكل عديدة كانت من جنس معاناة الوطن، فقد كان نقل الرواية الجزائرية لهذه المعاناة مشروعا وجب إنجازه، لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة أن نكشف عن صورة المرأة الجزائرية وكيف كان يُنظر إليها كشخصية أنثوية خاصة في مرحلة العشرية السوداء بالجزائر. وهذا من خلال رواية "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق.

الكلمات المفتاحية: المرأة، الرواية، العشرية السوداء، تاء الخجل، العنف،التحدي.

Abstract: *as a model The novel is considered as a result of societies thinking and it could describe and analyze different societies affairs. Among them the issue of woman which attracted literary attention. Therefore, writers picturesque her differently according to their backgrounds and perspectives. Thus, its presence in literature was prominent on either readers or critics. Since the Algerian woman witnessed bad circumstances and varied problems that the society also shared, it becomes a duty for the Algerian novel to transmit it. In this study, we will describe the figure of the Algerian woman and how she was dealt with as a feminine personality, especially in the black decade in Algeria through the novel of "Ta El Khadjal" by Fadhila El Farouk..*

Key words: *woman, novel, black decade, Ta El Khadjel, violence, challenge*

*المؤلف المراسل

تقديم:

تعتبر الرواية من أبرز الفنون التعبيرية التي تجسد الحياة الإنسانية، وتُعبر عن الواقع، فقد احتلت صدارة الفنون النثرية في الأدب العربي فحققت بالتالي نجاحا بين الناس، فهي المرآة العاكسة التي تغوص وتتعمق في الفكر لتعالج مشكلات الحياة أو تقوم بعرضها، ومن بين أهم القضايا الأساسية التي عالجتها الرواية "قضية المرأة"، وما احتلته من مكانة رئيسة أو ثانوية، بوصفها قوة فاعلة ومؤثرة في مسار حركة البناء والتحرير، إضافة إلى كونها نبعا فنيا ثريا بالدلالات الموحية والمعبرة، لذلك فقد حظيت المرأة العربية، ولا سيما الجزائرية، باهتمام الكثير من الكتاب والأدباء، على اختلاف اتجاهاتهم وتعدد اهتماماتهم، وشغلت حيزا بارزا في نتاجهم الأدبي، سواء أكان شعرا أم نثرا، فكانت الوتر الحساس الذي يتأثر بحركة الواقع ويؤثر فيه.

ومن ثم فقد أردت أن أتناول هذه القضية وأتخذها مجالا لهذه الدراسة والبحث، فكان عنوان موضوعي "المرأة في الرواية الجزائرية المعاصرة، رواية "تاء الخجل" لفضيلة الفاروق أنموذجا".

وتنطلق هذه الدراسة من قناعة مفادها أن لا فاصل بين الفن والمجتمع ومن غير اللائق أن يتناول الدارس موضوعا بعيدا عن المجتمع خصوصا ونحن نعيش إشكاليات مطروحة وآراء متناقضة حول الموضوع، فمن قائل : إن على المرأة أن تنعزل وتتستّر، إلى قائل بتحرر المرأة وخروجها، ومن هذا الصراع تولدت آراء عدة، وقد سجل الأدباء آراءهم حول هذه القضية ومن بينهم الروائية (فضيلة الفاروق) التي حاولت رفع السرد النسائي عاليا محطمة بذلك الحواجز متحدية لغة الذكر، فأنجبت لنا روايتها "تاء الخجل" والتي عالجت من خلالها موضوع المرأة وما عانته في الجزائر خاصة في مرحلة التسعينيات.

ومنه يمكن أن نتساءل كيف كان ينظر إلى المرأة كشخصية أنثوية خاصة في مرحلة العشرية السوداء بالجزائر؟، وهل بقيت هذه المرأة محافظة على خصالها، أم انسلخت منها بفعل الظروف؟وكيف صورت الروائية حالة المرأة؟ كل هذه التساؤلات سنحاول أن نجيب عنها من خلال هذه الدراسة.

العنوان:

لقد جاء عنوان رواية "تاء الخجل"في صيغة مركب إضافي ينقسم إلى شقّين، ففي القسم الأول:

تاء: نلاحظ أنه ليس اسما ولا فعلا وإنما يدل على الحرف الثالث من الحروف الهجائية بعد الألف والباء، إذ يحمل دلالات المؤنث عكس " الألف،الجيم، العين، السين..."، و"التاء" في النحو: "تاء" الفعل أو "تاء" التأنيث الساكنة، وتشترك في نوعين هما: الدلالة على الفاعل مذكرا أو مؤنثا.

لكن "التاء" في هذا العنوان وردت نكرة وغامضة المعنى، وأُزيل هذا الإبهام بالقسم الثاني الذي عرّف الأول بالإضافة، والمتمثل في كلمة "الخجل" ،

و قد وظفت الروائية في روايتها كلمة "الخجل" بدل "الحياء" لأن هذه الكلمة –الخجل - تمثل سمة خاصة في الأنثى، فالخجل هو حالة نفسية مرضية تقوم كحائل أمام صاحبها في أي موقف من المواقف، أما "الحياء" فيعني الاحتشام، وفي الحديث النبوي الشريف " الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان".

إن الحياء قرينة مشتركة بين الجنسين، فمثلا (عثمان بن عفان كان حييّا)، والخجل يشير مباشرة إلى المرأة والعقدة التي أُلصقت بها من خلال ثقافات المجتمع، إذ لا يحق أن تجهر بالكثير من آرائها ولا تقوم بالعديد من التصرفات، وليس لها الحق في إثبات وجودها وكينونتها.

ولعل ما يثبت ذلك التناص الذاتي بين العنوان وقول الروائية:

" منذ العائلة....منذ المدرسة...منذ التقاليد...منذ الإرهاب كل شيء عنّي كان تاء للخجل،

كل شيء عنهن تاء للخجل، منذ أسمائنا التي تتعثر عند آخر حرف،

منذ العبوس الذي يستقبلنا عند الولادة، منذ أقدم من هذا،

منذ والدتي التي ظلت معلقة بزواج ليس زواجا تاما، منذ كنت أراه فيها يموت بصمت،

منذ جدتي التي ظلت مشلولة نصف قرن من الزمن، إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له من أخ زوجها وصفقت له القبيلة وأغمض القانون عنه عين، لهذا كثيرا ما هربت من أنوثتي...."[1].

يحمل هذا المقتطف تصريحا مباشرا عن تاريخ المرأة المضطهدة بدءا من الخلية الأولى للمجتمع (الأسرة)، بل منذ أول لحظة لاستقبال الحياة،و منذ العصور التي وُئدت فيها الأنثى من هذا الواقع الظالم الذي يعامل المرأة بقسوة وحقارة، و هو ما ولّد في نفسية الروائية شعورا بنكران ذاتها والنفور من الذات المضادة لها، فصورت لنا واقع المرأة الجزائرية التي تشكل جزءا من معاناة المجتمع الجزائري، فالكاتبة أصبحت مرغمة تقوم على ممارسة دلالية أساسية بواسطة الحروف والكلمات والإشارات، وأضحى الأدب لعبة سيميائية يحقق المتعة واللذة والتحرر.

كل هذا يجعلنا نحكم على عنوان الرواية بأنه يحيل للسلطة المضادة لجنس المرأة، فهو عنوان يُرسّخ إحساس المرأة بنقص الحنان.

المرأة في رو اية "تاء الخجل"

استهلت الروائية فضيلة الفاروق روايتها بالحديث عن معاناة المرأة منذ العصور الأولى وصولا إلى زمن المحنة، أو كما يطلق عليها (العشرية السوداء)، فصورت المرأة المُتأرجحة بين التحرر والسيطرة لتقسم النص الروائي "تاء الخجل" إلى صور هامة للأنثى، منها صور سلبية (صورة المرأة المقهورة) وأخرى إيجابية (صورة المرأة المتحررة)[2].

أولا- المرأة المقهورة:

تعددت أسباب العنف ومستوياته في رواية فضيلة الفاروق، فمنها ما يعود لمنظومة العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية القاسية التي تضع المرأة في خانة القهر، ومنها ما يعود للأزمة الوطنية وما لاقته المرأة الجزائرية في تلك العشرية من اختطاف واغتصاب، ومنها ما يعود لسلطة الزواج التعسفية، وكل هذا ناجم عن النظرة الدونية للمرأة.

تبدأ الرواية حديثها بالعودة إلى الماضي الذي يمثّل أزمة الذات الأنثوية وهوسها، إنه من أهداها العبودية والوأد ثم قص عنها أحجية الخطيئة، فرسم لها نظرة دونية في لوحة راسخة في الذاكرة الإنسانية إذ تقول الرواية في هذا المجال:

"منذ أسمائنا التي تتعثر عند آخر حرف ... منذ العبوس الذي يستقبلنا عند الولادة ... منذ القدم ... منذ الجواري والحريم، منذ الحروب التي تقوم من أجل مزيد من الغنائم منهن ... "[3].

سردت الرواية عدة نماذج لقهر المرأة في روايتها وهي:

1 - قهر الرجل للمرأة داخل محيط الأسرة:

أظهرت الرواية بعض مظاهر تعنيف الرجل للمرأة على مستويين هما:

أ-القهر النفسي:

يظهر القهر النفسي للمرأة داخل محيط الأسرة في عدة مشاهد من الرواية وهي:

- الزوجة المُعلقة:

ترك عبد الحميد زوجته زهيّة مُعلقة بعدما تزوج بامرأة أخرى من أجل أن تنجب له أطفالا ذكورا، فتقول الروائية: " منذ والدتي التي ظلت معلقة بزواج ليس زواجا تماما ... منذ كل ما كنت أراه يموت فيها بصمت، ... منذ ذلك اليوم لم نعد نرى والدي إلا مرة أو مرتين في الأسبوع"[4]

- قتل الأب لابنته تخلصا من العار:

وهو ما حصل مع (ريمة النجار)ذات الثمان سنوات، حيث تعرضت للعنف البشع من قبل والدها الطاغية المتسلط الذي رماها من أعلى الجسر بسبب أنها تعرضت للاغتصاب من قبل رجل في الأربعين من عمره، بغية تخليص نفسه من عار اغتصابها " اكتشفت أن الوالد هو الذي رمى بابنته من أعلى الجسر ... قال إنه خلصها من العار"[5]

- التبرؤ من الابنة بعد تعرضها للاغتصاب:

وهو ما حصل مع (يمينة) التي تعرضت للعنف النفسي من قبل والدها الذي تبرأ منها رغم أنها خطفت أمام عينه، وتعرضت للاستغلال الجسدي من قبل الجماعات الإرهابية، فعوض أن يحّمل عاره للإرهابيين الذين اختطفوها مارس سلطته وعنفه عليها، وهي المستضعفة المشوهة النفس والجسد معا، ليؤكد بذلك أن لا إنسانية له، إذ أهملها وتركها مرمية في المستشفى بطريقة لا رحمة فيها، وقد صرحت (يمينة) بقولها: "أخبرني الضابط أن أهلي رفضوا استقبالي من جديد، اتصل بوالدي عن طريق شرطة (آريس)، بكت قليلا ثم أردفت: أنكر في البداية أن له بنتا"[6]

لقد كانت ردّة فعل الأب عنيفة وكأنه يحمل المسؤولية للبنت لما وقع لها، حيث يمارس العنف على ابنته، ويسحق بل ويطمس ملامحها من الوجود بكلمة واحدة قالها الضابط: أنه لم ينجب ابنة. إنه رجل عربي مُحمل بالقيود الاجتماعية البالية، لا دفء فيها ولا حنان كما يصفه (هشام شرابي): "الأب العربي يمتاز بالتعالي والابتعاد عن أبنائه"[7]

- الرتابة الأنثوية المصنفة في الدرجة الثانية:

كان يوم الجمعة في بيت البطلة يوما لمشروعية الرتابة الأنثوية المتمثلة في الطبخ وتوصيل الصحون لرجال العائلة بعد رجوعهم من صلاة الجمعة، وانتظار الرجال حتى يفرغوا من تناول الغذاء، ثم يأتي دور النساء. تقول في هذا المجال: "كنت أكره ذلك التقليد الذي يجعل منا قطعا من الدرجة الثانية، كان يزعجني أن أرى سيدي إبراهيم في موضع السلطان وأعمامي وأبناءهم حاشيته المفضلة، يجلسون في غرفة الضيوف حول المائدة الكبيرة ينتظرون خدمتنا لهم"[8]

إن هذه النظرة الدونية للمرأة وجعلها في الدرجة الثانية تولد عندها ألم نفسيٌّ، إذ تقول في هذا المجال: "أما ما يجعلني فعلا أفقد أعصابي فهو فترة الغذاء يوم الجمعة ..... ولهذا كل يوم جمعة أصاب بالصداع وأتمارض وأختار لنفسي موقعا في البستان أو على سلالم السطح لأختفي عن الأنظار"[9]

ب- العنف الجسدي:

ذكرت الرواية بعض مشاهد العنف الجسدي الذي تتعرض له المرأة داخل المحيط الأسري وهي:

- تعرض الجدة للضرب المبرح:

حيث تعرضت لعنف جسدي من أخ زوجها، تقول الروائية: "منذ جدّتي التي ظلت مشلولة نصف قرن من الزمن، إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له من أخي زوجها وصدقت له القبيلة وأغمض القانون عنه عينيه"[10]

وهنا يمكن التساؤل عن الدافع والسبب الذي جعل الرجل يمارس سلطته على المرأة المستضعفة بعضلاته، وهو لا يملك أدنى حق في ذلك، وتقدم الكاتبة مفهوما لطبيعة الرجل العنيف والمرأة المسلوبة الإرادة والمغلوبة على أمرها بالطاعة، والمسحوقة جسديا ونفسيا.

- تعرض العمة "نونة" للضرب المبرح من قبل زوجها أبي بكر:

ضرب أبوبكر زوجته "نونة" ضربا مبرحا بسبب حديثها مع نساء العائلة والسخرية من "زهية" بعد أن تزوج زوجها من امرأة أخرى، ويتجلى هذا في قول الروائية: "... في تلك الليلة ضرب عمي أبوبكر العمة نونة ضربا مبرحا... "[11]. تتعرض المرأة للضرب والعنف والقهر لأتفه الأسباب داخل المحيط الأسري.

2- قهر المجتمع للمرأة وقيود العادات والتقاليد:

يتجلى قهر المجتمع للمرأة وإجحافه في حقها وتكبيلها بقيود العادات والتقاليد في عدة مشاهد في الرواية وهي:

أ- المرأة المحرومة من الدفاع عن حبّها:

إن الصياغة اللغوية في متن الخطاب الروائي تحيلنا إلى استعمال الضمير الواحد السردي الدال على الذات المفردة المؤنثة (أنا) والتي تعلن عن نفسها في مقامات السرد الذاتي، حيث يتضح ذلك في قول الروائية: "

عشت أجمل قصة حب في ذلك الزمن الباكر، ومعك كنت أنسى قساوة الرجال ... إذ أحجل أن أفتح حديثا عن الحب ... الحب المؤلم حين تغيره الجنائز وتلوثه الاغتصابات، ويملؤه دخان لإناث المحترقات"[12]

تطرح الروائية قضية الأنثى والحب، فلا قانون عرفي يسمح بذلك في الجزائر، فالشعور وجود لكنه أسير العوالم الداخلية، والإفصاح عنه محرم وممنوع في مجتمع لابد أن تخجل الأنثى من الإفصاح عنه ولا التحدث في شأنه، والنتيجة الحتمية أن المرأة الجزائرية خصوصا والعربية عموما لم تكن قادرة على التعبير عن مكنونات نفسها والبوح بأدق أسرار مشاعرها وأنوثتها نتيجة الحصار الفكري الذي وئد فيه فكر المرأة.

ولكن الخوف الأزلي بالتعبير عن أحاسيسها يمنعها وينأى بها عن الجهر بهذه الأحاسيس خوفا من مجتمع لائم، بل ومازالت المرأة متخوفة من الإفصاح عن أدق مشاعرها الأنثوية ونداءات حين يخفق الحب[13]. لأنها تعبر عنه داخليا وفي صمت، ولكن عيون المجتمع تراقب الأنثى، وتحمل المحبين المسؤولية، وتخاف من جلب العار، وحلها للحب هو التعجيل بتزويجها برجل من مقام العائلة الكبيرة أو القبيلة.

تقول الروائية في هذا الصدد عن عمها أبي بكر الذي وشى بها إلى أبيها قائلا بأسلوب تلميحي: " كل بنات الجامعة يعدن حبالى، هل سننتظر حتى تأتيك بالعار"[14]. وعندما أبى الأب ذلك ثقة منه بابنته وحبا لطلب العلم والتفوق، لجأ العم إلى التصريح باسم العشيق وأمه، مستهلا بنداء يحرض الفحولة في الأب للموافقة على القرار فقال: " يا رجل لقد رأوها مع نصر الدين ابن مسعودة أكثر من مرة"[15]. وبذلك قرر كبير العائلة (سيدي إبراهيم) تزويجها من (محمود) أو (محمد) هكذا دون استشارة الذكر ودون احترام قلب الأنثى، ولكن (محمود) اعتقل لنشاطه مع جماعة إسلامية متطرفة ومحمد سيسافر إلى جامعة غرونوبل بفرنسا،لكن وفاء الصداقة الذي بينه وبين نصر الدين منعه من ذلك.

وها هي فضيلة الفاروق تعبر عن حبها بذاتها: "يزعجني أيضا أننا معا كنا ننتمي لتلك البيئة الجبلية القاسية التي تترصد الحب بعون العربية ... أعترف لك اليوم أنني هربت منك بعد أن أعياني الخجل لمواجهة الجميع بحبك، لم تفهم كيف أتعايش مع تناقضاتي تلك، وجدتني عاجزة عن فك عقدتي المرتبطة بترسّب قديم وبال يخلط بين الحب والجنس"[16]

ب- المرأة المحرومة من التعلم:

أعطى المجتمع الريفي أحقية التعلم للذكر فقط، أما المرأة فهي محرومة من هذا الحق على اعتبار أنها تختزل منذ الصغر في الأعمال المنزلية إلى جانب النساء الناضجات، فالقلائل منهن من كانت لهن الفرصة للالتحاق بالمدرسة ومواصلة الدراسة.

ولكن تبقى نظرة المجتمع للمرأة المتعلمة نظرة ناقصة، فالدور الأساس الذي تلعبه الأنثى داخل البيت هو منصب الأعمال المنزلية من طبخ وغسيل .... إلخ، حيث عبرت الروائية بذلك عن قولها على لسان (يمينة): "توقفت عن الدراسة حين عاد عمري أربع عشرة سنة ... لم يقبل والدي أن أدخل ثانوية (أريس) ذات النظام الداخلي"[17] وهذا بحكم بلوغها حيث أن أحقية البقاء في المنزل مقدمة على مواصلة الدراسة، ولاسيما أن هذه الدراسة ستبعدها عن الوسط الأسري الخاضعة له،وهذا لا يتطابق مع العادات والأعراف الريفية، فالذكور فقط مسموح لهم أن يغادروا ذلك الوسط الأسري، ونجد أن التعليم مقتصر على الذكر دون الأنثى التي تحرم هذا الحق البسيط.

وحاولت الروائية إبراز حرمان المجتمع المرأة من حق التعليم، حتى وإن استطاعت هذه المرأة مواصلة الدراسة، فإن المجتمع يبقى حاجزا لإعاقة هذا الحق، بحجة أن الخروج من أسوار البيت يؤدي بها إلى جلب العار لأهلها، وهو ما نجده واضحا من خلال ما قام به العم بوبكر الذي وشى بها إلى أبيها قائلا في أسلوب تلميحي: "كل بنات الجامعة يعدن حبالى فهل ستنتظر حتى يأتيك العار؟"[18]. هذا لمجرد أن البطلة حاولت إكمال دراستها بعيدا عن أسرتها.

ج- المرأة الجاهلة الأمية:

كانت المرأة أكثر تضررا وأشد تخلفا، بسبب حرمانها من التعليم ووضعها على هامش الحياة العامة، وبسبب عنترة الرجل وانحراف فهمه لقواعد الإسلام وقيمة الحقيقة التي حددت بوضوح وظيفة كل منهما، فإن بعض الآفات التي أصابت شريحة من النساء العربيات عموما، والجزائريات خصوصا.

الجهل والأمية فرضا عليها، وحصرا وظيفتها في الإنجاب والتربية والطهي، وأدى ذلك إلى شل وظيفتها التربوية، وتخلُّفها الذهني والفكري.[19]

تسرد لنا الروائية مشهدين للمرأة الجاهلة: تمثل الأول في شخصيتي كل من العمة (كلثوم) والعمة (نونة)في تفسيرهما لنجاح ذكور العائلة، قائلتين: "إن سيدي إبراهيم كتب حجاجا لينجح الذكور، وكتب آخر ليجعل من الإناث، ربّات بيوت ..... "[20].

أما المشهد الثاني الذي يصور المرأة الجاهلة، فيتمثل في شخصية (للاعيشة) عندما تقول: "حين يبدأ العام الجديد بيوم الاثنين سيكثر الموتى من الشباب، وحين يبدأ بيوم الثلاثاء يكثر الموتى من العجزة وكبار السن وحين يبدأ بيوم الأربعاء يموت المال[21].

لقد أدى الجهل بهؤلاء النسوة إلى الإيمان بالشعوذة والكهانة والتنجيم، وكل ما يسمى خرافات وأساطير.

د- نبذ الفن الأنثوي:

إن المجتمع يرفض دراسة المرأة، حتى وإن تخلصت من قيود المجتمع، فكيف تتوقع أن ينظر إليها وهي خارج الأسوار التي رسمها لها قابعة داخل البيت، مُتحدية إياه في مجال العمل، ويبقى الرجل ينظر إليها على أنها متمردة ويصفها بالعاهرة، وقد عبرت عن ذلك الروائية في حديثها مع (كنزة) التي منحت حياتها لفن المسرح، فلم تلق غير السخرية، والإذلال، وفي ذلك تقول: "أما أعطي وقتي وتفكيري وجهدي للمسرح، فهل أعطاني شيئا؟ إنني أُرشق بالحجارة من طرف الأطفال، والجمهور نفسه الذي يصفق لي ليلا بعد العرض، يصفني بالعاهرة نهارا"[22]

هـ- قهر المرأة داخل وسط العمل:

يمتد العنف ضد المرأة ليصل إلى العمل، فتتعرض (خالدة) للعنف في العمل من قبل رئيس التحرير الذي أجبرها على الكتابة في موضوع أضحى بالنسبة لها أمرا مستحيلا، لتتساوى بذلك الذات الكاتبة والذات المُغتصبة، "أفضح يمينة ... أفضح نفسي..."[23]. إن إلحاح رئيس التحرير على النشر هو كشف للأنثى وتعريتها وفضح لواقع الجسد المنتهك، تقول في هذا المجال: "ضرب بقبضته على الطاولة وقال: ما الذي أصابك اليوم؟.."[24]

ثانيا- المرأة المُغتصبة المقهورة:

كانت المرأة الجزائرية أكثر الفئات التي تأثرت وتأذت من الإرهاب في الجزائر، خاصة من خلال محاولة كبتها وانتزاع حريتها، وتعرضت للعنف والاغتصاب، ويتجلى هذا العنف في الرواية حين عبرت الروائية عن سنة 1994م بأنها "سنة العار والتي شهدت اغتيال 151 امرأة واختطاف 12 امرأة من الوسط الريفي المُعدم، ثم ابتداء من عام 1995م أصبح الاختطاف والاغتصاب إستراتيجية حربية ... و550 حالة لفتيات ونساء تتراوح أعمارهم بين 13- 40 سنة، سُجلت تلك السنة"[25]

ونجد في الرواية بعض الشخصيات المُغتصبة من الإرهابيين أولها شخصية (يمينة) باعتبارها شخصية قيل عنها الكثير نتيجة تواترها العالي في النص الروائي، وقد بدت لنا الأكثر تضررا من صاحباتها.

يجسد هذا النموذج القهر والألم من الواقع المتأزم، نتيجة لما تعرضت له من عنف بشع من الإرهابيين.

تعرضت (يمينة) للاختطاف والاغتصاب من الإرهابيين وأصبحت بعد تحريرها من قبضتهم متلفة الأعصاب يائسة تائهة بين مرارة الحدث وإنكار العائلة لهذا الكيان الممزق ووجدت نفسها أمام مصير لم تختره لكنها تحملت مسؤوليته[26]

لقد تعرضت لضراوة الاغتصاب وخاضت غمار التجربة المُتأزمة بكل أبعادها وعاشت من خلالها صراعات متعددة مما جعل مشاعرها مُحملة بالألم والاحتقار للوحوش الدامية (الإرهابيين).

وتتضح لنا شراسة الإرهابيين ووحشيتهم في حوار بين (خالدة) الصحفية و(رواية) المغتصبة الثانية:

"- خالدة ... كيف صارت؟ (وأشرت إلى يمينة) فأجابتني بجمود.

- ستموت

- لو أن الجيش وصل قبل أن تلد لكانت أُنقذت ربما.

- أنجبت.

- نعم

- وأين الطفل؟

ابتسمت بشكل جعلني أشك في قواها العقلية، ثم قالت:

قُتل

من قتله؟

وحوش الغابة"[27]

استنادا إلى تقنية الوصف يمكننا الوقوف عند مقطع آخر يكشف عن العنف الذي مورس على جسد الضحية:

"سلختها قميصها فكشف الجسد عن كل ما عاناه من آثار للتعذيب خدوش وبقايا جراح ... ابتسم الاصفرار الذي يلون الشفتين، الأسود في عينها كان بعيدا"[28].

لقد نزفت (يمينة) ألمها على جسدها المنتهك حروفا تحولت إلى شبح يخنقها، هذا ما خدر في نفسها جميع الأحاسيس عدا الذكريات المؤلمة، إكراه الجسد واغتصاب للأنوثة، مما أهلها للضياع والقهر وسلّمها أخيرا للموت. تهدف شخصية (يمينة) إلى إظهار الممارسات الوحشية للجماعات الإرهابية، فهي ممارسات تعترف بالإكراه سببا في عدم الرضا، وانتقاد الوجود والكيان معا.

ولهذا ف(يمينة) رمز متعدد الدلالات، رمز لامتهان الجسد الأنثوي واغتصابه وتعنيفه، ورمز للوطن (الجزائر) المغتصبة المُعتدى عليها.

لا تمر حادثة الاغتصاب هكذا على جسد المرأة كحادثة مزعجة، وإنما لها آثار خطيرة على مستوى الحياة الاجتماعية النفسية والأسرية، ولهذا تعاني (يمينة) مرارة الحادثة (الاغتصاب)، وإنكار الأهل الذين اعتبروها وصمة عار. ولهذا نجد أن العنف الإرهابي في الرواية انتهى بحالات خطيرة وهي:

الموت (يمينة): إن العنف الجسدي والنفسي الذي تعرضت له يمينة أدى بها في الأخير إلى الموت.

الانتحار(رزيقة): التي طالبت بإجهاض جنينها بعد تحريرها من قبضة الإرهابيين، لكن الأطباء رفضوا طلبها لينهي بها الأمر إلى الانتحار في دورة المياه. تقول البطلة: "وما أثّر فيّ فعلا الرسالة التي تركتها ... توصي بالتبرع بكل أعضائها للمرضى المحتاجين لذلك".

الجنون (رواية): التي جُنّت بعدما شاهدت مجزرة قتل قريبتها، حيث يظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بين الصُحفية (خالدة) والمُغتصبة (يمينة)، وتسأل خالدة عن رواية فتُجيبها (يمينة): " كنا ثمان، قُتلت منا واحدة، قتلت أمامنا ذبحا، بمجرد وصولنا، لأنها رفضت الرضوخ للأمير، من يومها ورواية هكذا ... فالمقتولة كانت قريبتها"[29].

1- اغتصاب الطفلة (ريمة نجار):

اغتصبت الطفلة البريئة من أحد المهوسين والمشوهين نفسيا طامسا لبراءتها، ويظهر ذلك جليا في سرد الروائية لقصة الطفلة (ريمة) ذات الثماني سنوات، واصفة مجريات الحادثة الشنيعة بقولها: "اغتصبها رجل في الأربعين أحدب وقصير، يقطن بالحي نفسه، وله دكان صغير يبيع فيه الحلوى والبسكويت والعلكة.

قال: إن البنت دخلت عنده لتشتري حلوى فأشار لها أن تتناولها بنفسها من أعلى أحد الرفوف فيما أغلق باب المحل وانقض عليها"[30]

استطاعت الروائية التعبير عن كل هذه الحالات بأحرف حاقدة وباكية ونازفة ومتمردة في الوقت نفسه عن القيم والأوضاع الفاسدة المبنية على أساس السيطرة، إذ تقول:

كتبت ما يقرب الست صفحات عن (رزيقة)، وعن (ريمة النجار)، بكيت وأنا أكتب قصة قصيرة عن بنت تشبه (ريمة)[31].

2- إلصاق الخطيئة بالمرأة:

يسدل الستار عن وحشية الذكر في صمت من أجل أن تؤدي المرأة مهامها الإغرائية المعززة للخطيئة، إنها في نظر الذكر من جسدها على كفها هدية وبكل إرادة، ويتجلى ذلك واضحا في الرواية من خلال سؤال طرحه الضابط على المغتصبة، وهو سؤال ينم عن مدى قساوة الذكر للمرأة حتى ولو كانت المقهورة بريئة، وذلك من خلال ما صرحت به (يمينة) في الرواية قائلة:

"سألني الضابط: هل اختطفت أم التحقت بالإرهابيين لوحدي، تصوري؟" [32]. وكأنه لا يكفيها ألما أنها عانت الخطيئة التي حملها لها الذكر، إذ "الأهل لا يبالون، طردوا بناتهم بعد عودتهن"[33].

وحتى القانون لم يحقق عدالته ورفض اعتبارها ضحية وأدانها الآخر.

ونجد هذا فيما أوردته الروائية في قولها على لسان المُغتصبة (ريمة): " أي قانون هذا الذي يجبر المرأة على قبول ثمرة اغتصاب كرامتها وإنسانيتها في أحشائها"[34]. لقد رفض الطبيب إجراء عملية الإجهاض لإحدى المغتصبات، بحجة أنه لا بد من إثبات ذلك من خلال قوله: " على الحصول على محضر الشرطة أولا لإثبات أن هذه المرأة كانت ضحية اغتصاب إرهابي[35]

ثالثا- **المرأة القوية المتحررة:**

تتجسد صورة المرأة القوية في شخصية (خالدة)التي تحمل في ذاتها جرأة التحدي ضد التقاليد المتعسفة التي نفذتها ذهنية الرجل وماضوية المجتمع.حاولت أن تكون في الطليعة بتحديها رجال العائلة، وكانت مقاومتها من أشرس المعارك التي خاضتها في مسيرتها، وهذا ما جسده عنوان الفصل " أنا ورجال العائلة"[36]. وشخصية (خالدة) هي الصورة الوحيدة للمرأة المتحررة، فالروائية فضيلة الفاروق جعلت من قلمها أداة الاستهجان، وإدانة المجتمع لنظرته الدونية للأنثى، كون روايتها مختزنة الأنثى المقهورة بحثا عن الذات وإثباتا لوجودها.

وتظهر قوة شخصية (خالدة) في الرواية عبر ثلاثة مشاهد تجسد صورة المرأة المتحررة وهي:

1- المرأة المتعلمة:

إن حب (خالدة) للتعلم والدراسة جعلها غير راضية على السائد فهي لا تقبل الاستسلام والرضوخ، وبالتالي التمرد وقبول التحدي لرجال العائلة. لهذا تتحدث البطلة بصيغة المتكلم: "سأرى من ينكر أنا أم هم"[37]. لما يحمله ضمير المتكلم من جرأة في التحدي، فلم يرهبها حتى الرجال.

أمام هذا التكهرب تتحقق الذات من خلال الابتعاد والدراسة بمغادرة ماضي التموقع إلى حاضر الانفتاح والرفض والتجاوز، فتقول: "كيف غادرنا بستان الأشواق بعد البكالوريا ... أنا سافرت إلى قسنطينة"[38].

2- المرأة العاملة:

ترى (خالدة) - رغم تبعة المرأة لإمرة الرجل - ، إن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال تعرضها للاضطهاد وحرمانها من حقوقها، فتنازع البطلة من أجل تمظهر الذات الأنثوية تامة الحضور، بودعة عالم التصحر والفراغ وصولا إلى التفرد المطل على فضاءات متنوعة بالعمل العمود المستنهض الموجود، وعملت بالصحافة إذ تقول: " انغمست في العمل الإعلامي ... وانضمت إلى جريدة الرأي الآخر"[39].

3- المرأة الواعية المثقفة:

تكشف الرواية بشكل تدريجي أن البطلة (خالدة) تعيش أوضاع الجزائر وواعية بمأساتها، وبتلوث جوها بالأموات له أسباب كثيرة في نظرها، منها:

- المجتمع بكل قوانين الآباء وأفكارهم ومبادئهم بخاصة معايشتها لعالم المغتصبات، هذا العالم الذي ظنت أنها ستدخله كصحفية لا تخرج منه كواحدة منهن[40].

- إن الوقوف على مواجع الذات ومحاولة تغيير واقعها لن يكون إلا بالتفريغ، تفريغ الذكريات والأحلام والأزمات، "كان صخب الكتابة يكسر قضبان الداخل ويجعلني أمشي في مظاهرة ضخمة تنادي بالحياة"[41].

- الكتابة صانعة الوجود ومحققة الذات و "الحكي إغراء ومقاومة واستدراج إلى عوالم تخفيها دوائر التجديد والذين يملكون الحكايات ... أشد حضورا من الذين لا حكاية لهم"[42].

- إن الميراث الذي يحقق الهوى والآلة التي تمنح الراحة واللذة، وإذا ما أردت الأنثى الاستغلال عليها أن تحقن لهذا المضاد، وفي هذا المجال تقول الروائية.

"أريد أن أحقنها بفيروس الأدب والفن ..... أريدها أن تعشق الحياة من جديد، أن تنسى محنتها في الجبال، أن تقطع صلتها بالماضي، أن تصمد لمئات السنين..."[43]. فما يغير الماضي النمطي هو اجتياح صريح وراسخ للذات.

خاتمة:

في ختام هذه الدراسة ومن خلال ما سبق ذكره، يجب أن ننبه إلى أن قضايا المرأة لا تُستمد من عمل روائي واحد، ولا من أعمال متعددة لروائي واحد، بل تتضافر الأعمال الروائية لمختلف الكتاب، لرسم هموم ومشاكل ومطامح المرأة، وبالتالي تقديم صورة متكاملة لها من النواحي النفسية والاجتماعية والجسدية.

وترتبط صورة المرأة بالواقع المعيش، وتتجاوزه إلى جوانب مثالية ورمزية فالصورة العامة للمرأة صورة فكرية وفنية في الوقت نفسه.

ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها في خاتمة هذه الدراسة نذكر:

- صورت الرواية واقع المرأة الجزائرية التي تُشكل جزءا من معاناة المجتمع الجزائري، تبحث عن الانعتاق من أسر التقاليد الرّثة، وتطلع إلى كسر قضبان الداخل، كي تهرب من صمت الوحدة الذي تعانيه المرأة مفخّخة الألم، تغطي حياتها بسرية تامة وتدثرها بدثار سميك.

ولكن الحب الذي تبحث عنه المؤلفة مؤلم وعنيف، وهو ليس أكثر إيلاما من الانفصال الذي يجعل الدنيا تصبح أكثر حدة، امرأة هاربة من أنوثتها ومن الآخر– الرجل- لأنه مرادف لتلك الأنوثة المستضعفة والمهمّشة في مجتمع لا يقدم أدنى متطلبات الاحترام للمرأة.

- لقد عبّرت رواية "تاء الخجل" عن واقع أنثى تعيش صراعا داخليا في مشاعرها وسلوكياتها وحتى شرفها، لا لشيء إلا لكونها مخلوقا مستضعفا دونيا في نظر المجتمع، وهناك فروق بينها وبين الذكر.

- نستطيع القول إنه بدءا من الأزمة الجزائرية في التسعينيات أعطت الضوء الأحمر كمحطة ينطلق منها السرد النسوي، ليساير التجربة بحق من خلال معايشة الواقع بعينه،فكتبت العديد من الروائيات عن قضايا المرأة وما تعانيه.

- وجود عدة نماذج في رواية "تاء الخجل" تباينت واختلفت كل بمواقفها ومواصفاتها، (سلبية كانت أم إيجابية).

- تميزت فضيلة الفاروق في رواية "تاء الخجل" بجرأة الطرح وتحطيم الطابوهات،فتناولت قضايا المرأة ومعاناتها خلال تلك الفترة، وخاضت في الأمور المسكوت عنها.

- جاءت الرواية مُختزلة في صورة المرأة المقهورة، استهجانا من الروائية للمجتمع، ونقدا صريحا للعادات والتقاليد التي كانت سببا فيما حدث للمرأة في نظر الروائية.

وأخيرا فإن موضوع المرأة في الرواية الجزائرية يصحّ أن يكون ميدانا لبحوث شتّى وتوسع أكثر لما فيه من جودة، فهي ما تزال غير مدروسة، وما البحوث والدراسات المتوفرة حولها إلا جزء يسير مقارنة مع الأعمال الإبداعية الأخرى.

هوامش وإحالات المقال

[1] -الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط 2 ،2006، ص: 11

[2]- ينظر: أجلاسي (زهرة)، مقياس الألم حول الذات الكاتبة، جريدة اليوم، العدد3، أكتوبر، 2002، ص13.

[3]- الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، ص: 11- 12.

[4]- المصدر نفسه، ص: 11- 12.

[5]- المصدر نفسه، ص 11- 12.

[6]- فوغالي (باديس): موضوعات القصة الجزائرية القصيرة، الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي -15-16 أفريل 2002م، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص: 258.

[7]- عويد العتري (فواز): الأسرة العربية وإشكالية التخلف والعنف – نظرة سيميولوجية- ، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد2، مارس 2001، دار الهدى للطباعة والنشر، ص: 156.

[8]- الفاروق (فضيلة): تاء الحجل ص: 24.

[9]- المصدر نفسه، ص: 24.

[10]- المصدر السابق، ص: 11.

[11]- المصدر نفسه، ص: 21

[12]- المصدر نفسه : 14-15.

[13]- ينظر: لوسي (يعقوب): لغة الأدب والشعر في كتابات المرأة العربية، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 2001م، ص: 178.

[14]- الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، ص: 28.

[15]- المصدر نفسه، ص:29.

[16]- المصدر نفسه، ص:34.

[17]- المصدر نفسه، ص: 47.

[18]- المصدر نفسه، ص:28.

[19]- ينظر: يايوش(جعفر)، الأدب الجزائري،التجربة والمآل،المركز الوطني في للبحث في الأنثروبولوجيا والاجتماعية والثقافية،مطبعة وهران،ص: 23.

[20] -الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، ص:21

[21]- المصدر نفسه ، ص: 21-22.

[22]- المصدر نفسه، ص:39.

[23]- المصدر نفسه، ص: 57.

[24]- المصدر نفسه، ص: 60.

[25]- المصدر السابق، ص: 57.

[26]- ينظر، مشقوق (هنية): البنية السردية في روايات فضيلة الفاروق، ص:54.

[27]- الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، ص 77.

[28]- المصدر السابق،ص:80.

[29]- المصدر نفسه، ص: 42.

[30]- المصدر نفسه، ص: 48.

[31]- المصدر السابق، ص:40.

[32]- المصدر نفسه، ص: 79.

[33]- المصدر نفسه، ص:59.

[34]- المصدر نفسه، ص: 66.

[35]- المصدر نفسه، ص: 67.

[36]- مشقوق (هنية)، البنية السردية في روايات فضيلة الفاروق، ص: 57.

[37]- الفاروق (فضيلة)، تاء الخجل،ص: 29

[38]- المصدر نفسه، ص: 12

[39]- المصدر نفسه، ص:34.

[40]- ينظر، مشقوق (هنية)، البنية السردية في روايات فضيلة الفاروق، ص: 57.

[41]- الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، ص:15.

[42]- بن كراد سعيد، السرد الروائي، وتجربة المعنى، ص:102.

[43]- الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، ص: 90.

قائمة المصادروالراجع:

1- أجلاسي (زهرة)، مقياس الألم حول الذات الكاتبة، جريدة اليوم، العدد3، أكتوبر، 2002.

2- بن كراد سعيد، السرد الروائي، وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي،بيروت، ط1، 2008.

3- عويد العتري (فواز): الأسرة العربية وإشكالية التخلف والعنف – نظرة سيميولوجية- ، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد2، مارس 2001، دار الهدى للطباعة والنشر.

4- الفاروق (فضيلة): تاء الخجل، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط 2 ،2006.

5- فوغالي (باديس): موضوعات القصة الجزائرية القصيرة، الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي -15-16 أفريل 2002م، جامعة محمد خيضر بسكرة.

6- لوسي (يعقوب): لغة الأدب والشعر في كتابات المرأة العربية، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 2001م.

7- مشقوق (هنية)، العنف ضد المرأة في روايات فضيلة الفاروق، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد6، 2010.

8- يايوش(جعفر)، الأدب الجزائري، التجربة والمآل،المركز الوطني في للبحث في الأنثروبولوجيا والاجتماعية والثقافية، مطبعة وهران.2007.